الخطوات العملية لتعريب التعليم

إعـــداد

الدكتور/أحمد حمد(*)

تعريب الحياة في بلاد المسلمين يعتبر فريضة عينية على كل مسلم، فإن القرآن هو منهج حياة البشر – وعلى رأسهم المسلمون – وقد نزل بلسان عربى مبين، ولم ينزل بهذا اللسان دون سائر الألسنة إلا لأنه اللسان الذى يستطيع – دون سائر الألسنة – أن يستوعب جميع معانيه، ويعبر بدقة وإحكام عن مقاصده وإشاراته وأساليبه الفائقة في الإعجاز من إظهار وإضمار وحقيقة ومجاز وغير ذلك من القضايا العلمية والتاريخية التى تحتاج إلى حكمة بالغة في العرض والإيجاز.

والتعريب هو تحويل العجمة والإبهام إلى عروبة وبيان، فالتخاطب بغير اللسان العربى استعجام، والتوضيح بغير هذا اللسان إبهام، ولن يزول هذا الاستعجام وهذا الإبهام إلا باستعمال اللسان العربى في حرص واهتمام.

ولا يستقيم أمر لغة بين قوم إلا بالتركيز على أمرين: أولهما المرجع أو المصدر الأمين الذي تستقى منه هذه اللغة، وثانيهما القنوات جيدة التوصيل التى تصل عن طريقها هذه اللغة إلى كل من يستعملها.

وقد اختلطت اللغة العربية في بلاد المسلمين بلغات أخرى، بل أن بعض اللغات الأخرى قد احتال اللغة العربية في بعض هذه البلاد. وصوب أعداء الإسلام سهامهم إلى لغة المسلمين فأصابوها في الصميم، وترتب على ذلك أن

(*) أستاذ بكلية الشريعة – جامعة قطر.

استعجم بعضهم على بعض واستغلقت الافهام من أجل ذلك في كثير من قضايا الناس وشئونهم.

وساعدت عوامل عدة على هذا الاستعجام وهذا الاستغلاق، نذكر منها:

١) الكتب المترجمة التى تضمنت كثيراً من الأخطاء في الألفاظ والتعبيرات وقواعد النحو الصرف، ويبدو أن أصحاب هذ الترجمات ذوو بضاعة قليلة في معرفة اللغة العربية وعلومها، ولذلك تغلب عليهم ألفاظ وأساليب اللغة التى يترجمون منها.

٢) الذين أتموا تعليمهم بالخارج ثم عادوا وقد نسوا الكثير من لغتهم الأصلية لا يستطيعون في محاضراتهم وندواتهم وحواراتهم ومؤلفاتهم إلا أن يستعملوا مزيجاً من لغتهم الأصلية ولغتهم التى أتموا دراستهم بها.

٣) أعداء اللغة العربية – وقد يكونون من بين أبنائها ومن بين الذين حصلوا في دراستها والتمكن من علومها على شهادات عالية – وهؤلاء لا يألون جهدا في التقليل من شأن اللغة العربية والسخرية ممن يدافعون عنها ويطالبون في إلحاح بأن يكون لها القدح المعلى في كل مجال ولاسيما مجال التعليم.

الخطوات الأساسية:

وأرى أن الخطوات العملية الأساسية التى ينبغى اتباعها في سبيل التعريب هي ما يلى:

١) الحد من هذه العوامل التى سبق ذكرها.

٢) تكوين لجنة عليا للتعريب على مستوى العالم العربى والإسلامي.

٣) إنشاء فروع أو لجان محلية لها تنتشر في جميع الأقطار الإسلامية.

٤) تكوين لجنة عليا للمتابعة على مستوى العالم العربى والإسلامي.

٥) إنشاء فروع أو لجان محلية لها تنتشر في جميع الأقطار الإسلامية.

الحد من العوامل المذكورة:

إن العوامل التى أشرنا إليها هي في واقع الأمر عوامل هدم في بناء التعريب، ولا يمكن على الإطلاق أن تتم عملية التعريب – أو تتابع مسيرتها – وهناك ما يعمل دون كلل أو فتور على نقض غزلها أنكاثا أو جعل بنائها انقاضا، ولا ينكر أحد مدى تأثير المؤلفات المترجمة – والمليئة بالأخطاء في الألفاظ والتعبيرات وقواعد اللغة – على ألسنة قرائها وعدم قدرة هذه الألسنة على التعبير السليم؛ ولا مدى تأثير الذين أتموا دراستهم بالخارج – وأصبحت لغتهم مزيجاً منكراً – على المتلقين عنهم في معاهدهم؛ ولا مدى تأثير أعداء اللغة العربية على كثير من الافهام في تثبيط الهمم وإطفاء جذوة الحماس لدى الناشطين في مجال التعريب.

ويكون الحد من هذه العوامل بالبدء فورا في إعادة تأليف هذه الكتب بأسلوب سليم، فإن لم يمكن ذلك أو كان من العسير تنفيذه كان تجحيم تداولها هو العلاج الميسور. أما الذين أتموا دراستهم بالخارج فتعقد لهم دورات مكثفة في علوم اللغة العربية، ولا ينال أحد منهم أي حق في ترقية علمية أو إدارية إلا بعد إتمام هذه الدورات بامتياز في تقويم ألسنتهم. وأما أعداء اللغة العربية فيحال بينهم وبين المناصب القيادية أو الريادية كما يحال بينهم وبين المجالات الإعلامية أو الأدبية، فضلا عن التنبيه إليهم والتحذير منهم.

تكوين لجنة عليا للتعريب:

وهذه الخطوة من البداهة بحيث تعتبر من قبيل تحصيل الحاصل، لكننا أثرنا أن نذكرها للتركيز على ما يناط بها من مسئوليات كبيرة وتبعات ضخمة

لا يستطيع تحملها إلا ذوو الباع الطويل والصبر الجميل.

ونرى أن يكون أعضاء هذه اللجنة من المواهب الذين يمثلون جميع الأقطار العربية والإسلامية، ولا بأس من أن يمثل عضو واحد أكثر من قطر إسلامي.

أما مسئوليات هذه اللجنة فتتلخص في النقاط الآتية:

١) الحصول على الموضوعات التى تتطلب التعريب في مجال التعليم.

٢) تصنيف هذه الموضوعات وبحثها بدقة للوصول إلى تعريبها تعريباً مناسباً.

٣) ترتيب ما تم تعريبه بحسب درجته في الأولوية ونشره وإذاعته أولاً بأول.

٤) تنظيم وسائل النشر والإذاعة بحيث تصل حصيلة التعريب إلى من يعنيهم أمرها دون إهمال.

٥) الإشراف على الدورات المكثفة للذين أتموا دراستهم بالخارج والقيام ببعض المحاضرات في الموضوعات الهامة التى تدرس في هذه الدورات.

لجان متفرعة في كل قطر:

وهذه اللجان المتفرعة عن اللجنة العليا لابد أن تكون صلة الترابط بينها من ناحية وبينها وبين اللجنة العليا من ناحية أخرى من القوة والفعالية بحيث يكون أعضاء هذه اللجان كأنهم في مكان واحد مهما كان بعد المسافات بين هذه اللجان، ولاسيما أن وسائل الإتصال المتطورة أصبحت متنوعة وميسرة.

وما يشترط في مواصفات أعضاء اللجنة العليا يشترط كذلك في أعضاء

اللجان المتفرعة عنها، وما يناط من مسئوليات بأعضاء اللجنة يناط مثله بأعضاء اللجان المتفرعة عنها، ويضاف مسئوليتان آخريان إلى أعضاء اللجان المتفرعة وهما: الرجوع عند أى اشكال في التعريب إلى اللجنة العليا، وإمداد هذه اللجنة بالموضوعات التى تحتاج إليها في مجال التعريب.

أما حصيلة التعريب التى أنجزتها هذه اللجان المتفرعة فتستطيع كل لجنة أن تنشرها بطريقتها الخاصة بعد إذن اللجنة العليا بذلك. ومن الأفضل أن تكون عملية النشر مقصورة على اللجنة العليا، لأن ذلك أكثر ضمانا للدقة والضبط وعدم التكرار في الإرسال.

اللجنة العليا للمتابعة:

وهذه خطوة من خطوات التعريب العملية التى يجب أن يوجه إليها المزيد من الاهتمام، وهي المراقبة المستمرة لنتائج عملية التعريب وإلا ضاعت جهود اللجنة العليا للتعريب سدى أو لم تحقق الغاية المرجوة منها أو أتاحت لأعدائها فرصة للمزيد من تثبيط الهمم وتخذيل المتحمسين.ونرى أن يكون أعضاء هذه اللجنة من الحريصين كل الحرص على استقامة الألسنة باللغة العربية وشمول التعريب لكل ما يدرس في مراحل التعليم، على أن يمثل هؤلاء الأعضاء جميع الأقطار العربية والإسلامية.

أما المسئوليات التى تناط باللجنة العليا للمتابعة فهي المسئوليات الآتية:

١) استقراء المجالات التى يجب أن تستفيد من عملية التعريب.

٢) التحقق من وصول حصيلة التعريب إلى كل مجال من هذه المجالات.

٣) متابعة كل من يقوم بتطبيق ماجاء في حصيلة التعريب وتنفيذه دون أي تقصير.

٤) تسجيل كل من أخلص في هذا التطبيق وهذا التنفيذ وكان له دور بارز في ذلك.

٥) تسجيل كل من كان غير جاد في تطبيق حصيلة التعريب وظهرت عليه دلائل التعويق لعمليته.

٦) اقتراح العقوبة الرادعة لمن اعتبر من المعوقين والمكافأت القيمة لمن اعتبر من المبرزين.

٧) تعريف اللجنة العليا للتعريب بما يستحدث من مجالات يجب أن تصل إليها حصيلة التعريب.

لجان متفرعة في كل قطر:

وكان للجان المتفرعة من اللجنة العليا للتعريب لابد أن تكون هناك لجان متفرعة كذلك عن الجنة العليا للمتابعة، ويراعى في هذه الجان – كما سبق – أن تكون قوية الترابط كأنها في بلد واحد مهما كانت المسافات بينها، والذى أشرنا إليه في اللجان المتفرعة عن اللجنة العليا للتعريب نشير إليه في هذه اللجان؛ فإن مواصفات أعضاء اللجان المتفرعة هي مواصفات أعضاء اللجنة العليا والمسئوليات التى تناط بهم هي المسئوليات التى تناط بأعضاء اللجنة العليا، إلا أن اتصال أعضاء اللجان المتفرعة – سواء من اللجنة العليا للتعريب أو من اللجنة العليا للمتابعة – من حقهم أن يتصل بعضهم ببعض دون الرجوع إلى اللجنة العليا التى تفرعوا عنها، وليس من حقهم أن يتصلوا باللجنة العليا التى لم يتفرعوا عنها إلا بإذن من لجنتهم التى تفرعوا عنها، وذلك لضبط الاتصالات وتحديد قنوات المعلومات على مستوى القمة.

الخطوات المكملة:

هذا عن الخطوات الأساسية في عملية تعريب التعليم. أما عن الخطوات المكملة فإنها تتلخص في النقاط الآتية:

١) تعريب وسائل الإعلام.

٢) تعريب الحوار في المسرح و(السينما) والمسلسلات.

٣) تعريب الأغانى العامية الرائجة.

وقبل أن نشرح كل نقطة من هذه النقاط في الخطوات المكملة نلفت النظر إلى مايلى:

أ- إن مجال التعليم وأى مجال من مجالات هذه النقاط الثلاث التى سنتحدث عنها يتصل بعضها ببعض ويتأثر كل منهما بالآخر تأثرا يشهد له الجميع ويعترف به.

ب- إن هذه المجالات التى تشير إليها هذه النقاط الثلاث أصبحت في عصرنا هذا من المصادر التى لا يستهان بها في بث المعارف والمعلومات.

جـ- إن مجال التعليم يعتبر الأصل والأساس لأى مجال من مجالات المعرفة والثقافة والتنوير والتطوير في أى مجتمع.

د- إن التقدم في تعريب هذه المجالات يساعد في اختصار الوقت لأتمام عملية التعريب في مجال التعليم. وهذا مادفعنا إلى الحديث عن هذه الخطوات المكملة.

تعريب وسائل الإعلام:

لقد احتلت وسائل الإعلام مكانة كبيرة في تقدير الناس واهتمامهم - ولا غرو في ذلك - فقد أصبحت بالنسبة لهم المعلم الناجح والمرشد الناصح، بل

أنها أكثر من ذلك بالنسبة لهم، إذ تضيف إلى مالمسوه فيها من نجح ونصح إنها المعلم الطائع والمرشد الخاضع؛ إنها تسارع إليهم حيث يكونون وتمارس عملها حين يريدون، وليست مثل هذا المعلم أو الناصح الذى لابد أن يذهبوا إليه ويمثلوا بين يديه؛ إنها تتحدث بالصوت الذى يناسب أسماعهم، فلا هو بالعالى الذى يزعجهم سماعه ولا هو بالخفيض الذي يرهقهم تتبعه؛ إنهم تيحكمون بوساطة هذه الوسائل في ثلاثة أمور هامة في حياة جميع الناس: يتحكمون في الوقت وفي الوضع وفي الصوت، وهذا لا يتوفر لهم على الإطلاق إذا ذهبوا إلى دور العلم، فإن أي متعلم لابد أنه يلتزم في دور العلم بأوقاتها المحددة وأوضاعها اللازمة وأصوات بعض معلميها التى لا تحتملها آذان المتعلمين. أضف إلى ذلك أن هناك شريحة كبيرة من الذين لم يتموا دراسة لا يستطيعون أن يوفقوا بين مواقيت عملهم ومواقيت الدراسة في دور العلم فلماذا لا يلتجئون إلى هذه الوسائل، كما أن هناك شريحة أخرى من الذين أتموا دراستهم ويريدون أن يزدادوا علما ولا تساعدهم أوقاتهم على هذه الاستزادة في دور العلم، وسواء كانت هذه الاستزادة في تخصصاتهم العلمية أو في تخصصات أخرى، فالعلوم يتصل بعهضا ببعض وتتشابك معارفها في جانب لا بأس به من المسائل.

ولقد أستولت هذه الوسائل بالفعل على مساحات ذات بال في ميدان التعليم، ومازالت هذه المساحات تتداح أمام هذا الاستيلاء حتى تطفى على دور العلم التقليدية في المنظور القريب أو في سنوات قليلة لاتزيد على عدد أصابع اليدين، فإن التطور يتابع السعى ويحث الخطأ إلى درجة أن الفكر العادى لا يستطيع أن يلاحق مسعاه أو يدرك خطاه، وليس له إلا أن يقف مشدوها أمام مفاجآته ومنجزاته.

ومن هنا كان لوسائل الإعلام خطورتها في ميدان التعليم، وبالتالي حاجتها الماسة إلى عملية التعريب فيما يجب تعريبه من برامج تبثها على الناس.

وأرى أن التعريب لبرامج هذه الوسائل يعتمد على نخبة من المصححين الأكفاء ذوى الخبرة العالية في علوم اللغة العربية، حيث يعينون على الدوام فيها ولا ينقطعون عنها، وحيث يكونون في مناصب قيادية ولا يكونون موظفين عاديين.

تعريب المسرح و(الأفلام) والمسلسلات:

وهذه المسارح و(الأفلام) والمسلسلات تجتذب عددا كبيرا من أفراد المجتمع – وقد ذكرنا المسلسلات بالمسارح و(الأفلام) لأنها صادرة عنهما وأسلوب آخر لكل منهما، فكل منهما يعتمد على ترابط الحوار وتسلسل الأحداث – وهذا العدد الكبير أو الرواد الكثيرون أصبحوا لا يستغنون عن مشاهدتها أو متابعتها والإستمتاع بها. ولا شك أن الدعاية التى تلح على مشاهدة هذه المسارح و(الأفلام) تدفع الكثيرين إلى التسابق إليها والحرص على قضاء الساعات الطوال فيها.

وقد غزت المسارح و(الأفلام) المدن والأرياف حتى أن الأميين يذهبون إليها ويشاهدون ما يعرض فيها ويرهفون أسماعهم لكل كلمة أو عبارة تلقى من ممثليها ويميزون بين هذا وذاك من الممثلين، ويحكمون بالجودة أو الرداءة على أي عرض (سينمائى) أو مسرحى.

والذي يذهب إلى هذه العروض يكون بطبيعة الحال مدفوعا برغبة قوية وشوق عام، ولذلك يتابع فصولها وأحداثها وحوارها وكل عبارة تلقى فيها بيقظة كاملة وإنتباه بالغ، هذه اليقظة وهذا الانتباه اللذان يهيئان استعداده

النفسى والعقلى لينطبع فيه تماما كل ما سمعه في هذه العروض وماتلقاه منها، فترسخ في الذهن الألفاظ والعبارات بأخطائها مع غموض إيحاءاتها ودلالاتها لتكون في حاجة بعد ذلك عند الاستعمال للتعريب والإعراب. وبهذا الترسيخ للأخطاء في الألفاظ والعبارات يكون التمكين للعجمة، ووجود كثير من المستعجمين تتلقى عنهم أجيال بعد أجيال هذا التعليم المفتوح الذى يقبلون عليه بشوق ويتقبلونه ببشر وابتهاج.

ومن هنا كان لهذه العروض المسرحية و(السينمائية) خطورتها الكبيرة في ميدان التعليم، وبالتالى حاجتها إلى عملية التعريب إلى عروض يمكن أن تغرى بمشاهدتها الجماهير، ويقبل عليها من الرواد الجم الغفير.

وأرى أن التعريب لهذه العروض المسرحية و(السينمائية) يعتمد على نخبة من الأدباء الأكفاء الذين يجمعون إلى الخبرة في علوم اللغة العربية الخبرة في كتابة القصة وصياغة الحوار، حيث لا تجاز رواية مسرحية أو رواية (سينمائية) إلا بعد فحصهم فحصا دقيقا لألفاظها وعباراتها وحوارها ثم موافقتهم عليها.

والتعريب لهذه الروايات ليس عملاً شاذاً أو أمراً إدّا يقض على صياغة الرواية وينافى المقصود من وقع عباراتها وحوارها في نفوس السامعين – كما يدعى أصحاب هذه الروايات – فإن هذه الروايات إما أن تكون مأساوية (درامية) أو فكاهية (كوميدية) أو تجمع بين (الدراما) و(الكوميديا)، والرواية المأساوية يحرص صاحبها غالبا على التعبير العربي الجيد فلا تحتاج إلى أي جهد للتعريب. أما الرواية الفكاهية أو التى تجمع بين المأساة والفكاهة فهي التى تحتاج إلى شيء من الجهد في التعريب غالبا، حيث تستعمل ألفاظ وعبارات بعيدة عن التعبير الفصيح. ولابأس في تعريب هذا النوع من العبارات أن يقرن التعبير الفصيح بالتعبير الأعجمى إذا كان لابد منه في

تكوين الرواية نفسها ونوعيتها من حيث الوقع المؤثر أو التعبير ذو الظلال الخاصة عند المشاهدين.

تعريب الأغانى العامية الرائجة:

لاشك أن الغناء يستولى على المسامع ويتسلل منها إلى مشاعر النفس فلا تجد مناصاً من الانقياد له والبقاء في أسره، ويزداد الإنقياد طواعية والأسر قوة كلما كان الصوت جميلاً واللحن بديعاً، وتكتمل العبودية للغناء إذا كان الصوت ذهبياً واللحن عبقرياً.

ورسوخ الألفاظ والعبارات يكون أقوى وأبقى عن طريق الغناء، كما أن ذيوع هذه الألفاظ والعبارات يكون عن هذا الطريق، فإن النفس -- وهي مبتهجة بالغناء – تهيئ إمكاناتها وتجمع طاقتها لتتلقى كل كلمة ونغمة وتحفظها وتحافظ عليها ثم تحاول أن يكون شعورها مستمراً بابتهاج السماع فتردد ألفاظ وعبارات ماسمعت من أغان، وتكرر هذا الترديد ما شاءت على نفسها وعلى الآخرين.

وتشيع الآن في المجتمعات العربية والإسلامية طائفة من الأغانى التى تجمع بين الأخطاء اللفظية والتعبيرية وبين سقوط المعانى أو تفاهتها. ولقد بلغ من إنتشار هذا النوع من الأغانى أن أنحسر سلطان الأغنية الراقية التى تجمع بين سمو المعنى وفصاحة التعبير.

ومن هنا كان لهذه الأغانى الرائجة الآن خطورتها المضاعفة على مجال التعليم، وبالتالى حاجتها الماسة إلى عملية التعريب بالحد من هذا السيل العارم من الأغانى الساقطة أو التافهة وتقويم مايمكن تقويمه منها بتصحيح مبناه وترقية معناه.

وأرى أن التعريب لهذه الأغانى الرائجة يعتمد على نخبة من الأدباء الشعراء الأكفاء تصدر أحكامها الحاسمة على هؤلاء الذين أفسدوا أذواق الناس ولغتهم، وتعبر الطريق السليم للأغنية الراقية حتى تستعيد سلطانها ويمتد ظلها وتأخذ صورتها الجميلة من أنشودة وطنية حماسية أو أنشودة دينية روحية أو أنشودة غرامية عفيفة أو أنشودة أخلاقية مربية أو أنشودة تاريخية للوعى والتذكير.

كيف يتم اختيار اللجان والمجموعات المنتخبة؟

وهذا سؤال يجب أن يطرح في هذا المجال، فلا قيمة لأي مقترحات لا يقترن بها التنفيذ وتتضح الكيفية التى يشرع بها في هذا التنفيذ.

وللشروع في التنفيذ تعقد أولا المؤتمرات التى يعرض فيها بحوث مستفيضة تتناول أبعاد موضوع التعريب بمزيد من الشرح والإيضاح. ومن بين الأعضاء المشتركين في هذه المؤتمرات – سواء بحضورهم أو ببحوثهم – يكون اختيار أعضاء اللجان والمجموعات المنتخبة، ويضاف إلى هؤلاء الأعضاء المشتركين – إن لم يكونوا بالكثرة التى تسمح بالاختيار – الشخصيات العلمية المعروفة بحرصها على بذل جهد في هذا الموضوع.

أنواع اللجان والمجموعات المنتخبة:

ولكى يكون الاختيار على بصيرة لابد من تنويع هذه اللجان وهذه المجموعات وتحديد مصدر كل نوع. ونبدأ أولا بمصادر هذه الأنواع، فمصادر هذه الأنواع:

أ- الحسبة.

ب- الإدارة.

جـ- هما معا.

ونعنى بالحسبة: الرغبة في أداء العمل دون مقابل. ونعنى بالإدارة: الوظيفية الحساسة في أي نظام حكومى. وبناء على ذلك: يركز في أعضاء اللجنة العليا للتعريب وما يتفرع عنها من لجان على الأشخاص الراغبين في الحسبة؛ ويركز في أعضاء اللجنة العليا للمتابعة وما يتفرع عنها من لجان على الأشخاص الذين لهم مراكز حساسة في أي نظام حكومى؛ ويركز على الأمرين معا في اختيار أعضاء المجموعات المنتخبة لتعريب وسائل الإعلام وتعريب الحوارات في المسارح و(الأفلام) والمسلسلات وتعريب الأغانى العامية الرائجة.

من أين يكون النواة؟

لكن هذا كله لا يمكن أن يتحقق إلا بوجود نواة تحمل في داخلها قوة الإنطلاق فتخترق طبقات الأرض – مهما كانت سميكة – لتصير بعد ذلك شجرة وارفة الظلال كثيفة الأغصان والأوراق، دانية القطوف والثمار.

ومن البداهة أن تتجة الأنظار للحصول على هذه النواة من بين رجال الأزهر الذي يعرف الجميع أن له تاريخاً عريقاً ومشرفاً في الحفاظ على اللغة العربية.

والله هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل